التأصيل الألسني السوسيري للمفاهيم السيميائية الغريماسية.

الأستاذة: آسيا جريوي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

لقد تكلّم" دي سوسير" عن التصور السيميائي أثناء دراسته للّسانيات، ومنه فإنّ « المقولة السيميائية مستمدة من اللسانيات العامة»[1]، إذ نجد أنّ« المشروع السيميولوجي تأسّس على رؤية سوسيرية، وكان منحصرا في اللّغة لا يتجاوزها إلى النطاق المعرفي للعلوم الإنسانية ومنها السيميوطيقا وجميع الأنساق الدالة. ويعتبر هذا المشروع في إطار نظرية الإبلاغ عبارة عن تطبيق آلي لأنماط العلاقات اللّغوية ومن هنا بدا وكأنّه ملحق بالألسنية»[2]، « فالدراسات اللّغوية اختلطت منذ القديم بالممارسات الفكرية حول الأدلة. وظهرت السيميولوجيا كنظرية عامة للكلام، وبدت اللّغة من حيث نظامها الداخلي تنظيما من الأدلة مستقلا استقلالا تاما واندرجت مع تنظيمات أخرى تقوم على أدلة محدّدة ضمن ما سمي بالدراسة السيميولوجية»[3]، وعليه يحدد" دوسوسير" اللغة باعتبارها نظام من العلامات تعبّر عن الأفكار وتتكون من خلال الكتابة الألف بائية والصم والبكم والطقوس المعبّرة بالرموز إلى أشكال الآداب والإشارات الحربية[4].

ومن خلال هذا المفهوم للغة عند" دوسوسير" نجده قد تنبأ بعلم السيميولوجيا محدّدا علاقتها بعلم اللّغة إذ يرى أنّ اللسانيات« هي دراسة اللّغة الإنسانية بمعناها العادي ليست سوى جزء من هذا العلم العام الذي يختص بدراسة كل أنظمة العلامات(اللّسانية وغير اللّسانية)، بحيث أنّ القوانين التي قد تكشف عنها السيميولوجيا أو تتوصل إليها هي صالحة وقابلة للتطبيق عن اللّغة نفسها»[5].

وبهذا نجد أنّ" فريديناند دوسوسير" يصر على حمل علم جديد يدعى السيميولوجيا يهتم بالعلامات ويكوّن معنى سيميولوجيا كجزء جوهري من علم الاجتماع، ويمثل أكثر أهمية لنظام العلامات، فاللّغة في علم السميولوجيا كثيرا ما تقدم القوانين للّسانيات من منظور اللّغة[6].

وبدون« صعوبات اختبار إذن يحدّد طريقة أو منهجا ملائما للفصل بين السيميولوجيا واللّسانيات وإنّ في ذلك بداية عهد اللّسانيات يتعيّن بمثابة فرع أو جزء من علم بتخصيص واضح اللّسانيات من السيميولوجيا»[7]. فقد حاول سوسير أن يحدّد العلاقة بين اللّسانيات والسيميولوجيا بأنّ الأول جزء أو فرع من الثانية« إذ اعتبر السيميولوجيا محتوية للّسانيات من زاوية أنّ اللّغة نظام إشاري يمتاز بالأفضلية والاتساع أكثر من الأنظمة الأخرى، لذا كانت دراسته حولها ولم يمنعه هذا من إعطاء تعريف شامل للسيميولوجيا رابطا إياها بالمجتمع»[8].

ومن العلماء الذين كانت اهتماماتهم نحو الدراسة السيميائية بعد" دي سوسير" نجد " جورج مونان"(Geargmounin) و" رولان بارت"، وإن كانت اهتمامات" رولان بارت" في بدايتها صوب الدراسة النقدية. فأرسى بذلك قواعد منهج نقدي نصي، ثم ركز اهتمامه على السيميائية، أو ما يسمى علم(العلامات). فكان بذلك أول من خرج عن التصور القائل بأنّ اللّسانيات هي فرع من السيميائية. ويبرّر فكرته هذه بأنّ وظيفة الدلالة وتحققها في الواقع لا يمكن أن يتم خارج النموذج اللّساني. فعالم المدلولات ليس شيئا آخر إلا عالم اللّغة، فاللّسان هو المعبّر، وهو المعتمد عليه في أي توظيف غير لساني وبناءا عليه فإنّ السيميائية عكس ما ذهب إليه" دو سوسير" هي فرع من اللّسانيات وليس العكس»[9] فيقول" رولان بارت" في(درس السيميولوجيا)« إنّ اللّسانيات في طريقها إلى الانفجار بفعل التمزق فهي تنحو من جهة نحو صياغة صورية(...)، وخلاصة القول فإنّ صرح اللّسانيات أصبح يتفكّك اليوم من شدة الشبع أو من شدة الجوع وهذا التقويض للّسانيات هو ما أسميه من جهتي: سيميولوجيا»[10]. فالعلاقة بين السيميائية واللّسانيات أخذت مع" رولان بارت" مسارا مغايرا. إلا أنّ" سوسير" تناول السيميولوجيا عرضا كونه اهتم بدراسة اللّغة ولعلّ دراسته للعلامة اللّغوية كانت نقطة انطلاق لهذا العلم الجديد.

لقد استفاد" غريماس" من" سوسير" فأخذ منه مفهوم الدليل باعتباره« الرابط بين العناصر الصوتية والعناصر النفسية في صلب كل دليل من الدلائل ويقصد" دو سوسير" بالعناصر الصوتية الدوال فقد حصر الدال في الصورة الصوتية فقط أما العناصر النفسية فهي المدلولات وهو تأكيد على الجانب النفسي في دراسات" دو سوسير" والنظام السوسيري(يتضمن مفهوم الكل والعلاقة حيث لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء إلا في علاقتها

الاختلافية مع الكل داخل النظام ليس لها معنى في حد ذاتها عندما ينظر إليها معزولة. وهو ما عبّر عنه" دوسوسير" بمفهوم القيمة(Valeur)»[11].

وتعدّ كثير من المصطلحات والمفاهيم اللّسانية والبنيوية مهد النظرية السيميائية. فمصطلح القيمة في الحقل السيميائي يرد في المركبة السردية لنظرية" غريماس" إذ نلحظ وجود الذات المنجزة في مسارها السردي تبحث عن الموضوع القيمة وفكرة القيمة فكرة فلسفية بحتة، وبذلك انتقلت من المفهوم اللّغوي والفلسفي إلى المفهوم السيميائي، وفي العلاقة بين الدال والمدلول في العلامة اللّغوية، أصبح النص كلا دالا يبحث عن مدلولاته. كما أشار" سوسير" إلى علم النفس الاجتماعي وبالتالي قسما من علم النفس العام(...) ولعل السبب الذي جعله يضع السيميولوجيا هذا الموضع من علم النفس وعلم الاجتماع هو ولعه بالنتائج التي توصلت إليها أبحاث هذين العلمين على يد معاصريه" فرويد" و" دوركايم"[12]، فقد استفاد" غريماس" من فكرة التقاطع والتداخل بين السيمياء وعلم النفس إذ نجده يشير في أبحاثه الأخيرة إلى سيميائية الأهواء أو العواطف كامتداد لسيميائية العمل.

ومنه فقد استمدت السيميائية بعض المفاهيم الألسنية التي أتى بها" دي سوسير" في مؤلفه(دروس في اللّسانيات العامة) في(1910– 1911) حيث أشار إلى قضايا وأفكار تعتبر أساس علم اللّغة الحديث والمعاصر والمتمثلة في بعض النظريات المحققة في أنّ اللّغة شكل وليست مادة– جوهرا– في آلية معقدة(...) أما عن تصوراته فنجدها تكمن في جملة من الثنائيات مثل:(اللّغة/ الكلام، الآنية/ الزمنية، والعلاقات النظامية والعلاقات الاستبدالية، والصوت والمعنى) ولقد استفادت السيميائية من تصور سوسير خاصة فيما يتعلق بثنائية(اللّغة والكلام، والدال والمدلول، والوحدة والاختلاف)»[13].

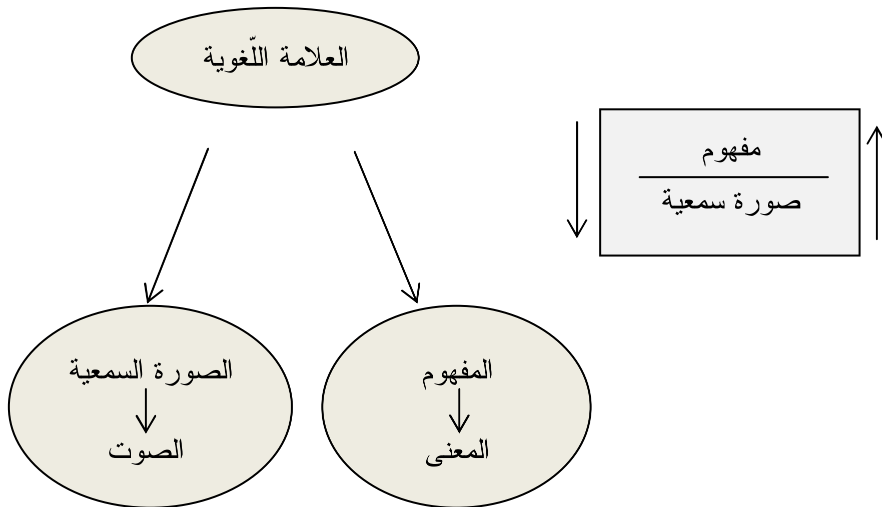
1– اللّغة والكلام:

تعد اللّغة عند سوسير مؤسسة اجتماعية ونتاجا جماعيا أما الكلام إنتاج فردي وعمل. واللّغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك اللّغة واللّغة معايير هذا السلوك والكلام نشاط واللّغة قواعد هذا النشاط والكلام حركة واللّغة نظام هذه الحركة[14]. فالكلام نتاج فردي متعلق بالفرد عكس اللّغة نتاج جماعي والكلام معادل لمفهوم الخطاب لذلك استمدت منه السيميائية كونه يشكل جملة لغوية كبرى تحمل معنى، ولعل توضيح الاختلاف بين اللّغة والكلام يمهد إلى تحديد ثنائية أخرى هي محور الاستبدال(الاختيار) ومحور

العلاقات المركبية(التوزيع)، كيف يمكن اختيار مفردات أو استبدال أخرى ونظامها على مستوى خطي وتوزيع نظامها بشكل معين لتحديد المعنى، وهذه هي المسائل التي تكلم عنها" سوسير".

2- العلامة اللّغوية:

من تصورات" سوسير" اللّسانية" العلامة اللّغوية" التي تتشكل من وجود« العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول. وهذه العلاقة ذات طبيعة اعتباطية، والاعتباطية في مفهومها الأدنى هي غياب منطق عقلي يبرّر الإحالة من دال ومدلول، فلا وجود لعناصر داخل الدال تجعلنا ننتقل آليا إلى المدلول، فالرابط بين هذين الكيانين يخضع للتواضع والمعرفة والتعاقد»[15]. وهذا الطابع المزدوج هو ما يميز العلامة اللّغوية، وبذلك فإنّ« العلامة (Signe) في نظر" دو سوسير" توحد بين مفهوم(Concept)، وصورة سمعية(Image acaustique) لا بين شيء واسم، فالصورة السمعية ليست الأصوات المادية بخصائصها الفيزيائية، وإنّما هي البصمة النفسية للصوت»[16]، ويمكن توضيح ذلك كالآتي:



وتوضح هذه الخطاطة أنّ العلامة اللّغوية تتكون من عنصرين هامين هما: المفهوم، والصورة السمعية، فهي« وحدة النظام والعنصر اللّساني الذي يتكون من صورة سمعية ومفهوم، ويبقي" دوسوسير" مصطلح(العلامة) للدلالة على الكل ويعوّض (المفهوم)، و(الصورة السمعية) بلفظي الدال والمدلول(Signifié/ Signifiant)[17].

كما يمكن أن يكون للدال مجموعة من الدوال والمفاهيم المتعدّدة. وبذلك استفادت السيميائيات المحايثة من(العلامة). إذ انطلقت من دلالة الكلمة في الجملة إلى الخطاب كجملة كبرى، وذلك باعتباره كلا دالا يبحث عن مدلولاته المختلفة والمتضمنة في أغواره.

3- مبدأ الاختلاف:

يرتكز المحلّل السيميائي في دراسة ووصف الأشكال الداخلية لدلالة النص على مبدأ الاختلاف(Différence)، الذي أرسى قواعده" سوسير" واستعمله للدلالة على أنّ المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنّما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام(18). حيث يتم فهم وإدراك معنى اللّفظ من خلال وجود الضديد له« فلا وجود للمعنى إلا مع الاختلاف. وهو المبدأ الذي توجته الدلالية كمسار لها في البحث في تطور الدراسات البنيوية»(19).

ولقد بلور" غريماس" هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية كمسار لاستيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين على الأقل تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى(20)، كما استفاد" غريماس" من مبدأ الاختلاف في تشكيل المربع السيميائي الذي يقوم أيضا على مبدأ التقابل الأرسطي. فالمربع السيميائي الغريماسي مبني على التمثيل للوحدات الدلالية (كالموت والحياة). فإدراكنا لمعنى الكلمة يستخلص من الضديد لها.

واستثمره أيضا" غريماس" في بلورة(التباين والاختلاف) في الكلمات في النص السردي، وبالمقابل يوجد التشاكل في الكلمات الذي اهتمّ به السيميائيون فيما بعد، خاصة " فرانسوا راستي" الذي ارتبط اسمه بمفهوم التشاكل السيميائي»(21).

وبذلك فقد استفادت السيميائية الغريماسية من المفاهيم السوسرية في تحليل النص السردي، كما نهلت من التصورات الألسنية مثل: تصور" هيلمسليف" و" تشومسكي" و" رومان جاكبسون" وغيرهم، واستفادت من التصورات المعرفية مثل: تصور" بروب" و" تنيير"، و" سوريو". ومنه فإنّ السيميائية السردية قائمة على جملة من الموارد الألسنية والمعرفية وحتى الفلسفية مثل:" أرسطو"، و" أفلاطون"، والفلسفة الظاهراتية.

الهوامش:

(1) Voir , A .J. Greimas, J, courtés, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du Langage, paris, 1979, p: 328.

(2) ينظر: محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص 06.

(3) ينظر: رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص(عربي، إنجليزي، فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 170.

(4) Voir, Ferdinand de Saussure, Cours de Linguistique générale, Editions talant kit, Bejaia, 2002, p: 22.

(5) زبير دراقي، محاضرات في اللّسانيات التاريخية والعامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، دت، ص 99.

(6) Voir, Johannsfehr, Saussure entre Linguistique et Sémiologie, presses universitaire de France, 2000, p: 105.

(7) Voir, Ibid, p: 108.

(8) ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2010، ص 17.

(9) ينظر: نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة، الإسكندرية، دط، 206، ص 327.

(10) ميشال آريفيهوآخرون، السيميائية أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دط، الجزائر، 2002، ص 33.

(11) ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 43.

(12) المرجع نفسه، ص 41- 42.

(13) ينظر: نادية بوشفرة، مباحث في السيميائيات السردية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، الجزائر، 2008، ص 09.

(14) تمّام حسان، اللّغة ونظام الأنظمة، ينظر: عبد السلام المسدي، اللّسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، ط1، جوان، 1984، ص 54- 55.

(15) سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، منشورات الزمن، دط، 2003، ص 51.

(16) نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، ص 319.

(17) ينظر: المرجع نفسه، ص 319- 320.

(18) ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2000، ص 10.

(19) ينظر: نادية بوشفرة، مباحث في السيميائية السردية، ص 10.

(20) رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص 10.

(21) عبد المجيد عابد، السيميائيات الجذور والامتدادات، من الموقع: http://www.Atida,org.